University of Zawia - Rewaq Alhkma Journal (UZRHJ)
Volume 9, Issue 2, (2025), pp. 103-116, ISSN:3079-0581

Bio-documentation and the Future of Man according to Habermas

Karima Al-Boush

Departement of philosophy - College of Nasser Faculty of Education - University of Zawia- Zawia - Libya

EMAIL: k.albosh@zu.eda.ly

Received:15 /10/2025 / Accepted:01/11/2025 Available online:31/12/2025.*DOI:10.26629/UZRHJ .2025.14*

Abstract:

Bioethics is a new moral science that emerged to establish a balance between scientific and technological developments and ethical values. Applied ethics, particularly medical ethics, is currently facing growing crises that traditional moral frameworks are no longer sufficient to address in light of the dominance of modern technology. This has led to contemporary human concern about the misuse of scientific progress and its deviation from serving human interests. The contemporary philosopher Jürgen Habermas is considered one of the most prominent thinkers who addressed issues of bioethics within his critical philosophy, adopting a communicative framework based on dialogue, due to his concern about the consequences of scientific developments in the field of genetic engineering.

This research aims to clarify Habermas's stance on bioethics as a link between science and morality. It raises questions about the limits of human intervention in human nature amid current transformations and discusses the idea of dialogue as a foundation for regulating scientific practices, ensuring that decisions concerning the future of humankind are not merely technical decisions detached from shared human values.

Keywords: Bioethics – Eugenics – Scientific Technology – Genetic Engineering

"Articles published in *Univ Zawia Rewaq Alhkma* J are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License."

البيواتيقا ومستقبل الإنسان عند هابرماس

كريمة البوش

قسم الفلسفة ، كلية التربية ناصر ، جامعة الزاوية، الزاوية – ليبيا
Email: k.albosh@zu.eda.ly

تاريخ الاستلام: 2025/10/15م **تاريخ القبول: 2025/11/01م** **تاريخ النشر: 2025/12/31م**

ملخَّص البحث:

تعد البيواتيقا علم أخلاقي جديد ، وجد لوضع توازن بين التطورات العلمية والتقنية ، وبين القيم الأخلاقية ، فالأخلاق التطبيقية وعلى وجه الخصوص الأخلاق الطبية ، تشهد اليوم أزمات متزايدة ، فلم تعد الأخلاق التقليدية كافية لتوجيهها في ظل هيمنة التقنية الحديثة ، وقد تسبب ذلك في قلق الإنسان المعاصر من إساءة استخدام هذا التطور ، والانحراف به عن ما يخدم مصلحة الإنسان .

ويعتبر الفيلسوف المعاصر يورغن هابرماس من أبرز الفلاسفة الذين تناولوا قضايا البيواتيقا ضمن فلسفته النقدية ، وفي إطار تواصلي قائم على الحوار ، نتيجة لتخوفه من نتائج التطورات العلمية في مجال الهندسة الوراثية .

وهذا البحث يهدف إلى توضيح موقف هابرماس من البيواتيقا كحلقة وصل بين العلم والأخلاق ، ويطرح تساؤلات حول حدود تدخل الإنسان في الطبيعة البشرية في ظل التحولات الحالية ، كما يوضح هذا البحث فكرة الحوار كأساس لتنظيم الممارسات العلمية بحيث لا تكون القرارات المتعلقة بمستقبل النوع البشري قرارات تقنية بعيدة عن القيم الإنسانية المشتركة .

كلمات مفتاحية: البيواتيقا – النسالة – التقنية العلمية – الهندسة الوراثية.

مقدمة:

تعيش مجتمعاتنا اليوم عصر التقدم العلمي في شتى مجالات الحياة ، وعلى وجه الخصوص في مجال الطب والهندسة الوراثية ، عصر تغيرت فيه النظرة إلى الإنسان من ذلك الكائن المقدس المتعالي على الأشياء إلى مجرد ظاهرة شأنه شأن أي ظاهرة طبيعية خاضعة للتجربة والتغيير والتطوير ، وأصبح محكوماً بمعايير مادية نفعية بعيدة كل البعد على أي اعتبارات إنسانية أو أخلاقية، وقد نتج عن هذا التطور أزمات كثيرة طرحت تساؤلات فلسفية عميقة تتعلق بآدمية الإنسان وكرامته ، وبالتالي كان من الضروري تطور الخطاب الأخلاقي وتجاوزه للخطابات الأخلاقية التقليدية، وقد أدى ذلك إلى ظهور ما

يعرف بـ (البيواتيقا) كفرع جديد لمبحث القيم وكضرورة لوضع حدود للتدخلات الطبية ، حيث أصبحت الأخلاق الطبية موضوعاً جدليًا تتقاطع فيه موضوعات الحياة والموت والحرية والمسؤولية ، والتقنية والقيم في ظل تصاعد النزاعات النفعية التي تجرد الإنسان من قيمته الذاتية وتحوله إلى مجرد شيء من الأشياء.

في هذا السياق تَبرز أهمية الأخلاق الفلسفية المعاصرة، ولا سيما فلسفة يورغن هابرماس الذي قدم أخلاقيات من نوع جديد مواكبة للتقدم العلمي ، معيداً الاعتبار للبعد الحواري في تأسيس القيم الأخلاقية ، و مبرهناً على أن الفلسفة قادرة على المشاركة في قضايا العصر ومسؤولة أيضاً على مراقبة نتائج هذا التطور .

إشكالية البحث:

تتمثل الإشكالية الرئيسية لهذا البحث في السؤال التالي:

ـ ما الحلول التي قدمها هابرماس لتجاوز أزمة الأخلاق الطبية ؟

ويندرج تحت هذا السؤال الأسئلة الفرعية التالية:

ـ ما المقصود بالبيوتيقا وما الميادين التي تدرسها ؟

ـ كيف تناول هابرماس موضوع البيواتيقا ؟ وهل يمكن اعتبار أفكاره صالحة لتوجه النقاش الأخلاقي في مجال الطب؟

ـ ما أهم الانتقادات التي وجهت لهابرماس ؟ وكيف كان رده عليها ؟

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في الحاجة إلى إبراز موضوع الأخلاق الطبية في ظل التقدم العلمي في العصر الحالي، كما تكمن في القيمة المعرفية لفكر هابرماس كفيلسوف معاصر أبرز أهمية الجانب التطبيقي للفلسفة ، معيداً الاعتبار للبعد الحواري في تأسيس القيم الأخلاقية ، وهذا ما جعل من رؤيته مدخلاً هاماً في تحليل أزمة الأخلاق الطبية.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى إبراز أزمة الأخلاق في مجال الطب في عصرنا الحالي وما يدار حولها من نقاشات تمس حياتنا اليومية، ونحن مدفوعون إليها في ظل هذا الانفتاح العالمي، كما يهدف إلى إبراز الفلسفة الأخلاقية التطبيقية لهابرماس.

منهج البحث:

يعتمد هذا البحث على المنهج التحليلي النقدي في فهم وتحليل الأفكار .

تم تقسيم موضوع البحث إلى المباحث الآتية:.

المبحث الأول: مفهوم البيواتيقا ونشأتها ومراحل تطورها:.

أولاً: المعنى اللغوي والاصطلاحي :

تعد البيواتيقا فكرًا أخلاقيًا جديدًا أنشئ لتجديد مبحث أو فرع من فروع الفلسفة ، وهو مبحث القيم كاستجابة للتحولات العميقة التي أنتجتها الحداثة .

ويشير المعنى اللغوي للبيواتيقا إلى أنه مصطلح مركب من كلمتين بيو (**Bio**) وهو اختصار للبيولوجيا أي علم الأحياء و اتيقا (**Ethique**) وتعني الأخلاق لتصبح بهذا المعنى أخلاقيات علم الأحياء ، كما تدل من حيت اللغة على التفكير في القيم الخاضعة للحياة (عطية ، 2010 ، 65) ، إذاً لو فككنا هذا المصطلح من حيث الاشتقاق اللغوي لوجدنا أن البيواتيقا تهتم بالكائنات الحية عامة ، بداية بالحياة النباتية والحيوانية وصولاً إلى الحياة الإنسانية ، بل هناك من أضاف إليها علم البيئة والإيكولوجيا كامتداد لمجلات البحث البيواتيقي (أبو فتاس ، 2011 ، 25).

أما المعنى الاصطلاحي للبيواتيقا فيتعلق بالتساؤلات الناجمة عن تطور التكنولوجية الطبية على وجه الخصوص في موضوعات مثل الإنجاب ، والتدخل الجيني ، والموت الرحيم وغيرها من الموضوعات التي يُثيرها مجال الهندسة الوراثية .

أما استعمال هذا المصطلح لأول مرة فكان على يد العالم البيولوجي الأمريكي (فان بوتر رينسلاير) المتخصص في الأمراض السرطانية والذي اقترح مصطلح البيواتيقا لغرض التأكيد على العنصرين الأساسين لاكتمال الحكمة الجديدة التي نحن بحاجة ماسة إليها للمعرفة البيولوجية والقيم الإنسانية (حديدي، 2002 ، 54).

كما تعرفها (جاكلين روس) البيواتيقا بأنها تدل على المسؤولية الإنسانية القادمة والبعيدة ، والموكلة لحراستنا ، والبحث على أشكال الاحترام الواجب للشخص بالنظر في القطاع الطبي الحيوي وتطبيقاته (حديدي ، 2016 ، 11).

وبناءً على ماسبق يمكن أن نعرف البيواتيقا بأنها دراسة متعددة التخصصات للشروط التي تستوجبها الإنسانية في إطار التطور السريع والمعقد للمعرفة والتقنيات البيواتيقية .

ثانياً: نشأة البيواثيقا ومراحل تطورها:

على الرغم من أن أول من استعمل مصطلح البيواتيقا في العصر الحديث هو البيولوجي الأمريكي (فان بوتر) سنة 1971 م ، إلا إنّ بعض الباحثين يرجعون استعمال المصطلح إلى جذور ضاربة في التاريخ الإنساني ، بدأت مع أبقراط(460-370ق.م) وهو أول طبيب عرفته البشرية قام بتهذيب أخلاق الطب ، فالطب حسب وجهة نظره هو أشرف الصنائع قدراً وعلواً ، لذلك بدأ بتعليم مبادئ الطب الصحيح بعيداً عن الخرافات التي كانت سائدة في عصره ، وكان يوجه الأطباء إلى بذل كل جهد في علاج

المرضى ، ويحثهم على الحفاظ على أسرارهم ، كما نجد في العصر الإسلامي فلاسفة الإسلام أمثال ابن سينا وابن زهر وضياء الدين وغيرهم ممن كانوا يهتمون بأدب المهنة والحفاظ على حياة المرضى والتأكيد على قدسية الحياة الإنسانية ، وحرمة الجسد البشري ، ويؤكد الرازي في كتابه:(أخلاق الطبيب) على كل المبادئ والقيم الأخلاقية في التعامل مع المرضى ومراعاة حالتهم الصحية . ومن جانب أخر نجد البعض يربط بين البيواتيقا وفلسفة التنوير وفكرة حقوق الإنسان ، والفلسفة البرجماتية ، كذلك فلسفة كل من كانط وسارتر ، ووقائع محاكمة تور نبرنج ، والتي بلورت مفهوم الجريمة ضد الإنسانية ، مما يراه البعض البداية الفعلية لظهور البيواتيقا.

ويمكن تقسيم مراحل تطور البيواتيقا على النحو التالي :

ـ **المرحلة الأولى:** تعود للأخلاق الطبية القديمة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، والتي بدأت مع أبقراط ، حيث وضع أُطر أَيتيقية للممارسات الطبية لأول مرة في التاريخ ، وعلى رأسها أداء القسم الذي مازال معمولاً به حتى اليوم.

ـ **المرحلة الثانية:** بدأت منذ التحول من الاهتمام بقضايا الأفراد إلى الاهتمام بالمشاكل الطبية اليومية ، وما نتج عنها من حقوق للمرضى في تقرير مصيرهم وارتباط ذلك بالقوانين ، وبذلك أصبح القانون الفلسفي يوازي الخطاب الديني الأخلاقي ، حيث أُنشئت مراكز متخصصة في هذا الجانب مثل المركز الدولي للبيواتيقا ، ومركز نيويورك ، ومجلة المركز حول البيواتيقا ، كذلك معهد جوزيف وروز كيندي لدراسة التناسل البشري والبيواتيقا (حديدي ، 78).

وقد حدد في هذه المراكز القيم الأربعة الكبرى للبيواتيقا ، وهي الاستقلال الذاتي ، ومبدأ الحرية ، ومبدأ عدم الإضرار ، ومبدأ العدالة ، وقد بلور هذه المفاهيم العديد من فلاسفة القرن العشرين أمثال رولز وهابرماس وغيرهما .

ـ **المرحلة الثالثة :** عرف العالم تحولاً عميقاً وانفتاحاً بيولوجياً كبيراً مع مرحلة هيمنة الطابع التجاري على النقاشات الأخلاقية في عصرنا اليوم ، وخاصة في مجالي الطب والهندسة الوراثية ، والذي تم استغلاله اقتصادياً وخاصة مسائل التبرع بالأعضاء ، والإنجاب ، والتخصيب وغيرها من المسائل التي أثارت نقاشات ساخنة حول مدى مشروعيتها الأخلاقية والقانونية ، لذلك تطورت البيواتيقا حتى أصبحت جزءًا لا يتجزأ من جملة القوانين الدولية المصرح بها والمعترف بها عالمياً مثل القانون الذي تم إقراره سنة 1994 ومراجعته سنة 2004 من قبل البرلمانيين الأوروبيين ، وبعدها 2011 لتأخذ بهذا المعنى شكلاً قانونياً تشريعياً معترفًا به في شتى أنحاء العالم (حديدي ، 79).

أدى تطور النقاشات الأخلاقية والقانونية في مجال البيولوجيا إلى تبني منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونيسكو) هذه النقاشات منذ عام 1993 م ، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي تقوم

بها المنظمة من خلال تشكيل الهيئات الاستشارية للمسائل الأخلاقية والقانونية ، إلا أنها تبقى بلا تأثير يذكر على أرض الواقع ، ولعل ذلك يعود إلى كونها منظمة لا تملك السلطة على الدول المتقدمة ، ومن ثم لا تملك وسائل مادية سلطوية لمنع التلاعب العلمي غير الأخلاقي لبعض الدول ، وتقتصر مهمتها على وضع المعايير والمبادئ الأخلاقية وتنظيم المؤتمرات حول أخلاقيات البيولوجيا، إلى جانب البرامج والنشرات التوعوية والتحضيرات الورقية (المكانين ، 2022).

ثالثاً: موضوعات البيواتيقا ومجالاتها:

لابد من الإشارة إلى أنه من الصعوبة بمكان أن نضع البيواتيقا في تخصص أو فرع معين ، نتيجة لارتباطها بالعديد من المجالات الدينية والأخلاقية والبيولوجية والفلسفية، إلا أن أغلب المهتمين أكدوا على أن البيواتيقا تنتمي إلى كل تلك الفروع ، حيث تتلاقى وتتقاطع جميعها في هذا المجال ، وهذا ما جعل منها حقلاً جديداً يكتسب صفة الشمولية ، والاتساع ، ويتناول العديد من القضايا المسكوت عنها مسبقاً .

وحسب تقسيم (غي ديوران) فإنّ الموضوعات التي تتناولها البيواتيقا تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: يبحث في موضوعات الإجهاض ، والقتل الرحيم ، والاتجار بالأعضاء ، وأطفال الأنابيب ، والأمهات البديلة ، والاستنساخ ، والجينوم البشري .

القسم الثاني: يبحث في موضوعات الأسلحة البيولوجية والكيميائية ، ووسائل التعذيب ، ومحاكم الإعدام.

القسم الثالث: يبحث في علاقة الأخلاق بالقانون وحقوق الإنسان ، وعلاقة الأخلاق بالتكنولوجيا (سوربة ، عمران وأخرون ، 2007، 181).

ومن جانب أخر يمكن تقسيم الموضوعات التي تتناولها البيواتيقا كما يلي:

أولاً : بحوث متعلقة بالنواة المركزية والتي تشمل كل ما يتعلق بالإنجاب ، وتأخر الحمل ، وأطفال الأنابيب ، والأم البديلة ، والتبرع بالأعضاء ، والبنوك المنوية ، وغيرها من الأمور المستجدة ، والتي شهدت تجاوزات أخلاقية وقانونية مثل بيع البويضات أو الحيوانات المنوية ، ويشمل أيضاً على البحوث في مجال الهندسة الوراثية وما يترتب عليها من إشكالات ناتجة عن التعديلات الجينية ، والاستنساخ ، بالإضافة إلى التحول الجنسي ، والقتل الرحيم ، وغيرها من الموضوعات التي تحمل أبعادًا أخلاقية وقانونية متعددة .

ثانياً: بحوث قريبة من النواة المركزية تطرح تساؤلات أخلاقية تتعلق ببعض الموضوعات كالحروب والأسلحة البيولوجية والكيميائية ، كذلك الحروب الجرثومية من صناعة الفيروسات ، والأمراض بغية السيطرة على أسواق العالم الصحية ، بالإضافة إلى علم البيئة والمحافظة على الأرض ، والانتقال إلى اللامركزية الفكرية (أبو فتاس ، 2011 ، 26).

وفي هذا السياق يرى أراس أنّ البيولوجيا اليوم قد بلغت تقدم لا يمكن معه استدعاء نظريات أخلاقية من أدبيات فلسفية سابقة ، فالمعضلات الأخلاقية الناجمة عن تطور البيولوجيا نزعت سمة الراهنية عن هذه الأخلاق ، لذلك يجب على الأخلاق البيولوجية أن تكون شكلاً من التأمل الأخلاقي بعيداً عن أي نظرية أخلاقية تحلق عالياً (أراس ، 2015 ، 34).

ولعله هنا يقصد نظرية كانط في أخلاق الواجب والتي أقامها على أسس ميتافيزيقية قبلية مستنداً على الفكر الأخلاقي باعتباره التزام غير مشروط ، يستمد قيمته من القانون المؤسس قبلياً وليس القائم على التجربة.

المبحث الثاني: آراء هابرماس حول البيواتيقا:

بعد التعرف على معنى البيواتيقا ، ونشأتها ومراحل تطورها والوقوف على أهم الموضوعات التي أنتجها التقدم العلمي ، نقف عند رأي هابرماس (1929 ـ.....) وموقفه من هذا التقدم والرؤية الأخلاقية التي قدمها في ظل الحريات المطلقة التي تعيشها المجتمعات الليبرالية ، ومن هذا المنطلق يتساءل هابرماس عن طبيعة هذه الحرية في ظل الدعوات التي تنادي بتطبيق مبادئ الليبرالية ، فوفقاً للمنظور الليبرالي، فإن للفرد حرية اتخاذ القرار دون الرجوع إلى أي سلطة ، فالفرد مالك لنفسه وجسده .

وفي ظل هذه الحريات وهذا التقدم العلمي الهائل نتجت مستجدات كثيرة على التاريخ البشري ، كالاستنساخ مثلاً ، فأثرت على الإنسان وقيمه ، وعلى الطبيعة أيضاً ، ففي كتابه: (المعرفة والمصلحة) يؤكد هابرماس على عدم إمكانية تحقيق الحياد العلمي في مجال المعرفة العلمية ، لأنّ المصلحة هي التي أصبحت توجه المعرفة والتي تهدف إلى السيطرة على الطبيعة، ثم السيطرة على الإنسان ، كما يقول هابرماس في كتابه: (بعد ماركس) إنه "بعد انهيار القوة الزمنية للدين والانعتاق التقليدي للأخلاق العامة ، وسقوط هالة الأعمال الفنية ، وبينما انكشف فقدان الدين والأخلاق والفن لكل قيمة بوصفها أشكالاً للوعي مهمتها تثبيت السيطرة ، ولم تعد تشكل بصفة رئيسية ما نسميه بالإيديولوجيا، لقد انفصلت التقنية والعلم من وجهتهما عن براءتهما الإيديولوجية"(هابرماس ، 2002 ، 255).

ويشير الشعلالي إلى أنّ التقنية تحولت من كونها قوة لجعل الأشياء وسائل لخدمة الإنسان وتحريره إلى قوة انقلبت قيداً على التحرير ، كما أن التقنية التي ارتبطت بالمجتمعات الرأسمالية قد تحولت إلى نماذج رقابية لا تعترف بالمعايير الأخلاقية والإنسانية ، إنما هي رقابة سلوكية تتحكم فيها المؤثرات والاغراءات الخارجية (الشعلالي ، 2017 ، 49).

وهذا ما انعكس سلباً على حياة الإنسان المعاصر الذي أصبح يعيش مغترباً عن ذاتيته بعد أن سقطت كل القيم ، ويقول هابرماس في هذا الصدد " لأول مرة يبدو السواد الأعظم من الناس مسجونين بعد ما اهتك

عمق ما كان يؤمن هويتهم في وعي الحياة اليومية التي تعلمنت كلياً ، وعارضين على الاستناد إلى اليقين المؤسسي أو على الأقل على اليقين الراسخ في أعماق الذات " (هابرماس، 1995 ، 46).

ويمكننا الوقوف على آراء هابرماس وتحديدها على النحو التالي :

1ـ موقف هابرماس من الإجهاض:

تناول هابرماس موضوع الإجهاض مركزاً على الجانب الأخلاقي في بعده الإنساني ، فقد أثار هذا الموضوع نقاشات أخلاقية وقانونية واسعة، حيث وجد هابرماس نفسه مرغماً على الخوض فيها ، فالإجهاض حسب وجهة نظره يحدث لأسباب كوجود أمراض وتشوهات ، وهذا يمثل عنده نوعين: تشخيص ما قبل الزرع، وتشخيص ما قبل الولادة ، أما تشخيص ما قبل الزرع فهو الذي يسمح بإخضاع الجنين وهو لا يزال في مرحلة التكوين، وهذا التصرف يجري أولاً لمصلحة الأهل الذين يتمنون تحاشي خطر وجود أمراض وراثية (هابرماس ، 2006 ، 40).

وهذا النوع من الإجهاض يتميز عند هابرماس عن الإجهاض لأسباب أخرى كالفقر أو التربية أو التقنين.

ويعتبر هابرماس أنّ النقاش الذي يدور اليوم حول الإجهاض هو نقاش بين جانبين أو اتجاهين، من يريد أن يدافع عن من هم مع الحياة، ومن يدافع عن موقف مع الخيار(هابرماس ، 40)، حيث يدافع الاتجاه الأول عن الحياة الذي يمثل المعسكر المحافظ الداعي إلى حماية كلية للحياة انطلاقاً من الخلية المخصبة التي تمثل البداية الفعلية للكائن البشري ، ويتعامل مع الجنين على أنّه شخص يتمتع بحقوق مستقلة، أما الاتجاه الثاني فهو يمثل المعسكر الليبرالي الذي يعتبر أن الحياة ما قبل الولادة هي حياة خالية من أي حقوق أو أحكام مسبقة ، وبالتالي للأم الحق في اتخاذ أي قرار بشأن الجنين ، باعتباره جزء من الأم ولا يتمتع بأي فرادة أو استقلالية ، وبذلك للمرأة كامل الحرية في اتخاذ قرار الإجهاض من عدمه (هابرماس ، 62).

من هنا تطرح العديد من المسائل الأخلاقية المتعلقة بالإجهاض ، والتي كانت محل أخذ ورد بين الفلاسفة ، فهناك من يؤيد الإجهاض ويرى أن المرأة من حقها اختيار مواصلة الحمل أو التخلص منه، وهناك من يرفض ذلك ويرى أن للجنين الحق في الحياة، والإجهاض هو عملية قتل لهذا الجنين(بركة،2019، 8)، وعلى الرغم من التوجه الليبرالي لهابرماس إلا أنه يؤكد على أنّ جميع النقاشات الدائرة حول موضوع الإجهاض لم تستطع أن تثبت أن الحياة ما قبل الولادة خالية من أي اعتبارات أخلاقية ، وأحكام مسبقة ، وبالتالي ليس لأحد الحق في إنهائها دون أسباب جديرة ومقنعة .

2ـ موقف هابرماس من التدخل في الجينوم البشري:

إنّ الإمكانيات التي تملكها الهندسة الوراثية للتدخل في الجينوم البشري ومن ثم تحويره ، هي سبب النقاش الدائر اليوم في مجال البيواتيقا ، والسؤال هنا ما موقف هابرماس من هذا النقاش ؟

يعتقد هابرماس أنّ الحرية المطلقة من المنظور الليبرالي والقائمة على الذاتية للأفراد لا ينبغي أن تستغل في أعمال تعيق حرية الإنسان في المستقبل ، ففي المجتمعات الليبرالية تترك الأسواق التي تعمل على البحث عن الربح والأفضليات القائمة على طلب القرارات النسالية لخيارات الأهل الفردية ، وبشكل عام للرغبات الفوضوية لدى الزبائن والمنتفعين (هابرماس ، 61) ، وهذا يعني إمكانية المتاجرة بإنسان المستقبل عن طريق التدخل بالسيرورة الوراثية ، والعمل على تعديلها وفق رغبات جيل الحاضر ، وبالتالي فإن حرية اليوم هي عبودية لإنسان المستقبل .

من هذا المنطلق تظهر لنا العديد من المسائل الفلسفية حول مسألة الحرية في ظل تطور الهندسة الوراثية، وحسب هابرماس تتقلب السيطرة بالتدخلات الوراثية البشرية على الطبيعة إلى فعل تسلط على الذات ما يحول دون تفهمنا لأنفسنا من وجهة نظر أخلاقيات الجنس البشري (البقصمي، 1993 ، 110) ، وهذا التحول الكبير في طبيعة العلاقات البشرية راجع لخضوع الإنسان لمتطلبات السوق وللنزعات البرجماتية الذاتية التي تعمل وفق المنطق الضيق للمصلحة الفردية ، فلم يتردد هابرماس من نقد لما قدمه المجتمع الليبرالي من تفوق للعلم والتقنية على الطبيعة والإنسان .

إنّ التطور الهائل في مجال الهندسة الوراثية أثار العديد من المشاكل الأخلاقية والتساؤلات الفلسفية ، منها على سبيل المثال الأسئلة التي تتمحور حول كيفية التعامل مع الأجنة الزائدة وأخلاقيات التخلص منها ، أو استعمالها لأغراض علاجية ، والتي تعتبر جميعها ممارسات غير أخلاقية لأن الذي يجعلنا أشخاصًا هو نوع الكائنات التي نحن عليها ، ونوع الطبيعة التي نمتلكها وليس مرحلة معينة يمر فيها الكائن البشري ككل (فرنسوا ، 2009 ، 105).

3. موقف هابرماس من النسالة الليبرالية:

وضع مصطلح النسالة سنة 1883 م للإشارة إلى العلم الذي يقوم على تعديل الصفات الوراثية عند الناس، ويرى فكوياما أنّ " العلم التطبيقي هذا يهدف إلى دفع العناصر الأكثر موهبة في المجتمع من خلال قياس الذكاء ، وذلك من أجل تعزيز إعادة توليدهم وإلى تحديد العناصر الغبية من أجل الحد من تناسلهم" (فكوياما ، 2006 ، 115).

وترجع الجذور التاريخية لمسألة تحسين النسل إلى العالم (تشارلز دارون) في كتابه: (أصل الأنواع) الصادر سنة 1971 م ، والذي رفض من خلاله فكرة ثبات الأنواع ليطرح فكرة الانتقاء الطبيعي ، بمعنى أنّ الأنواع في تطور مستمر حيث يعتبر إن إنسان ما قبل التاريخ ليس هو نفسه إنسان اليوم ، وهذا يعود إلى عالم الطفرة ، ففي كل مرحلة من مراحل تكوين النوع تظهر طفرة تعمل على تحول النوع ، والأنواع التي تستطيع الصمود أمام هذا التغير هي وحدها القادرة على البقاء، ولذلك فإنّ تحسين النسل في حقيقته هو مشروع حكومي قومي يقوم على تفضيل جنس معين من البشر على سائر الأجناس الأخرى ، من

خلال العمل على الانتقاء المستمر لاستيلاء الأكفاء واستبعاد غير اللائقين (فكوياما ، 34) ، وقد لجأت بعض الدول إلى هذا النوع من التمييز ، وخاصة خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية ، فكثيراً ما لجأت بعض الدول كالولايات المتحدة الأمريكية واليابان وألمانيا إلى إجراء اختبارات لقياس مستوى ذكاء الجنود ، وكل من أراد الالتحاق بالجيش، حيث أقدمت الولايات المتحدة الأمريكية على إجراء اختبارات واسعة النطاق على المجندين الجدد ، ووفرت لأول مرة بيانات عن القدرات الإدراكية للمجموعات العرقية والإثنية المختلفة وقد استغلت هذه البيانات من قبل معارضي الهجرة كدليل على الانحطاط العقلي لليهود والزنوج وملل أخرى (البقصمي ، 181) ، وقد نتج عن ذلك ظهور نزعات عنصرية ، وتمجيد أجناس على حساب أجناس أخرى ، بالإضافة إلى التعقيم الجبري للأجناس المعتقد أنهم بلهاء وتصفية للمعتوهين والمتخلفين عقلياً وذهنياً ، أو المصابين بعاهات دائمة ، وغير ذلك من الممارسات غير الإنسانية ، والتي أدت إلى إبادة أجناس بأكملها بحجة الدونية.

وعلى الرغم من تراجع هذا النوع من النسالة ، والتي يطلق عليها هابرماس النسالة الاستبدادية ، إلا أنّ التطور الهائل في مجال العلم وفي الهندسة الوراثية على وجه التحديد سمح بظهور نوع جديد من النسالة، والذي أصبح ضمن سلطة الأفراد بعد أن كان خاضعاً لسلطة الدول ، وهذا ما أطلق عليه هابرماس النسالة الليبرالية .

والسؤال المطروح هنا ما موقف هابرماس من التدخل في تحسين النسل ؟

وللإجابة عن هذا السؤال لابد من أن نشير إلى أنه على الرغم من تبني هابرماس لمشروع الحداثة ودفاعه عن العلم وقيم الأنوار ، إلا أنّه يعارض تطبيق قيم ومبادئ هذه الحداثة بحذافيرها في ميدان الهندسة الوراثية ، وقد قدم رأيه من خلال التمييز بين نوعين من النسالة أو تحسين النسل الليبرالي أطلق عليهما تحسين النسل السلبي ، وتحسين النسل الإيجابي .

أولاً تحسين النسل السلبى :

لقد تبنى هابرماس هذا النوع ؛لأنّه لا يرى فيه تهديداً للحريات الشخصية ، ولا إهداراً لكرامة الإنسان ، وهو النوع الذي يتعلق بالتدخلات التي تهدف إلى تحقيق غايات سامية كتخليص البشرية من أمراضها الوراثية عن طريق تغيير الشفرات الموجودة في الأجنة (هابرماس ، 65) ، فالهدف هنا يعد هدفاً سامياً؛ لأنه يسعى إلى حماية الأبناء من الأمراض ، ويقول هابرماس في هذا الجانب ، "إن التدخل الطبي المحكوم بهدف عيادي علاجي سواء تعلق الأمر بمعالجة مرض أو ضمان حياة بصحة سليمة على سبيل الاحتياط فإن المعالج قد يفترض أنّه قد حصل على موافقة المريض وراثياً ، معتبراً إنّ هذا التدخل لا يقلل من شخصيته(هابرماس ، 31).

ثانياً تحسين النسل الإيجابي :

يرفض هابرماس هذا النوع من النسالة لما فيه من تهديد للحريات ، وللطبيعة البشرية ، معتبره تدخلاً سافراً واستخفافاً بخصوصية الشخص من قبل أن يخرج للحياة.

إنّ رفض هابرماس لتحسين النسل في هذا الجانب يعود إلى خوفه من استخدام هذه التقنية لأعراض تطورية ، ما ينذر بالعودة إلى الممارسات العنصرية ، والاقصاء التي كانت تمارسه النازية ، حيث يذهب هابرماس إلى أنّه وتحت تأثير الوهم النتشوي هناك حفنة من المثقفين المهووسين يسعون متكهنين بواسطة ثقل القهوة إلى تأليه ما بعد الإنسانية تحولت إلى طبيعة في محاولة لاجتياز حائط الزمن (هابرماس،28).

والجدير بالذكر أنّه وحتى اليوم لم يقع الاعتراف بصفة إنسان وبالانتماء إلى الجنس البشري بالنسبة لبعض الشعوب ، وما يزال الصراع قائماً من أجل مساواة تامة في الحقوق بين أجناس مختلفة في كثير من بلاد العالم (هابرماس ،106).

ويشير المكانين إلى أنّ التقنية الجينية ذات النزعة التحسينية تهدد مفهوم الاستقلالية في سعيها لصياغة نمط جديد لهوية الكائن الإنساني ، من خلال مؤثر خارجي يتمثل في إرادة شخص أخر قام بهذا التدخل، وهو ما يمثل تهديداً مباشراً لهذا الإنسان بما هو فرد حر عاقل ، فضلاً على أن هذا التدخل الجيني يمثل حالة لخلق التفاوت بين الأفراد ما يعني تهديداً مباشراً للمساواة (المكانين ، 2022).

وتحسين النسل في هذا الجانب يكرس هذه الفوارق داخل المجتمعات ، وهو أيضاً يشجع بعض فئات المجتمع التي تشعر بالدونية إلى الإقدام على هذا النوع من أجل الارتقاء في السلم الطبقي للمجتمع ، وما ينتج عن ذلك من سلبيات أهمها هو تحول الإنسان إلى بضاعة يتاجر بها شأنه شأن أي سلعة ، وهذا حسب هابرماس كافٍ بأن يجعلنا نرفض التدخل في تحسين النسل البشري لأغراض تطورية ، لأنّه يمس القضايا الرئيسية لحقوق الإنسان وهي الحرية ، والمساواة ، والكرامة.

المبحث الثالث : ردود هابرماس على المدافعين على النسالة الليبرالية:

قدم هابرماس نقداً ورفضاً صارماً في كتابة مستقبل الطبيعة البشرية لكل الصرخات التي تنادي بضرورة تحسين أو تطوير النوع البشري وعلى رأسهم الفيلسوف الألماني بيتر سلوتر أديك(1947- ...؟) وهو مصنف بفيلسوف ما بعد الإنسانية ومقدم برنامج تلفزي شهير يحمل عنوان الرباعي الفلسفي ، حول مداخلته التي كانت تحمل عنوان قواعد لحضيرة بشرية حيث تبنى مفهوم نيتشه للإنسان الكائن الذي لم يكتمل نوعه ، وبالتالي فهو قابل للتطوير والتحسين ، فليس للإنسان نوعية خاصة به تكون محددة ونهائية، وإن النوع البشري مازال لم يحدد وأعلن صراحة أنّه قد بدأ عهد ما بعد الإنسنة ، ولابد للاستعداد لمجيء زمن الإنسان الجديد ، فقد رفض هابرماس ذلك وتصدى له في كتابه:(مستقبل الطبيعة الإنسانية)، رافضاً وبشكل صارم أي تدخل في الجينوم البشري ، ومحذراً من مخاطر البرمجة الجينية معتبراً أن للإنسان هويته الخاصة ، التي لا يمكن المساس بها ، وأنّ النزعة الإنسانية ترفض أي مقارنة بين الإنسان

والحيوان، لذلك يبرهن العديد من المدافعين على النسالة الليبرالية بحجة أنّه لا يوجد فرق بين الجانبين السلبي والإيجابي ، لأنّه وفي الحالتين يتم التدخل في السمات الوراثية للفرد بغض النظر عن الغاية أو الغرض من ذلك ، وهابرماس يرفض هذا الرأي معتبراً إن هذه الحجة تستخدم اليوم في الدفاع عن نسالة ليبرالية لا تعترف بالحدود بين التدخلات العلاجية ، والتدخلات الهادفة إلى غاية تطورية، بل تترك الأفضلية الفردية لصناع السوق في اختيار الغايات التي تتحكم بالتدخلات المعدة لتعديل السمات الوراثية، ويستند هابرماس في اعتراضه على هذا الرأي على بعض الحجج التي أهمها إنّ التدخل الوراثي قد تم بواسطة شخص ثالث ، وهذا الشخص سيطلع استرجاعياً على التدخل الذي تعرض له قبل الولادة ، وسيفهم نفسه كشخص عدلت سماته الخاصة ، وبالمقابل يرفض أن يمتلك بما يعتبر جزءًا من شخصيته التعديلات الوراثية التي كان هو جزء من موضوعها، بمعنى أن هابرماس يعتبر أن الذين تمت برمجتهم وراثياً لا يستطيعون اعتبار أنفسهم صانعي سيرتهم الخاصة بهم وحدهم دون شراكة ، وأنهم كذلك أشخاص غير متساوين بالولادة مقارنة بأقرانهم الذين لم تتم برمجتهم وراثيًا(هابرماس، 62 -68) .

ومن جانب أخر فإنّ الممارسات النسالية تهدد العلاقات الأسرية القائمة على التفاهم والثقة فتجعل الفرد المعدل وراثياً يفقد الثقة التي تعتبر أساس وجود الأسرة ، أيضاً لا يعيش حياة مستقلة .

إلا أن المدافعين عن ذلك يعتبرون أنّ الممارسات النسالية شأنها شأن الممارسات التربوية ، وأنّه من وجهة نظر أخلاقية لا يوجد فرق بين الاستنسال والتربية ، حيث لا فرق بين أن يوفر الأهل لأولادهم الظروف الملائمة من تنشئة اجتماعية راقية ، وتعليم جيد بقصد نجاحهم وبين اعطائهم هرمونات تساعد على النمو من أجل اكتساب قامة أطول ببضع سنتيمترات (هابرماس، 62).

ويقدم هابرماس اعتراضه على هذه الحجة مستنداً على نظريته في التواصل وقدرة الفرد على تكوين فهم ذاتي وشخصية مستقلة ومسؤولة ، ويوضح أن الفرق بين الممارسات النسالية والتربوية واضحاً ، حيث أنّ الممارسات التربوية والتأثيرات الاجتماعية على الأبناء من قبل أباءهم يمكن للأبناء التحرر منها في مرحلة معينة ، في حين عدم قدرتهم على التحرر من التعديلات أو التدخلات الوراثية في أجسامهم ، فالبرمجة الوراثية حسب هابرماس لا تقوم على حوار أو تفاهم بين المُبرمَج والمُبرمِج ، بل هي تدخل قسري في حياة الشخص تجعل الحياة متبعه لمقاصد الغير ، وهي مقاصد لم يستشر فيها ولم يحاور والأمر المأساوي لأنها عمل لا رجعة فيه .

مما سبق يتضح أنّ هابرماس يربط بين الممارسات النسالية والغاية أو الهدف الذي تصبو إليه ، ويعترض على الممارسات التي تحمل صبغة تطورية كالرغبة في الحصول على أجيال بمواصفات نتشويه لما يترتب على ذلك من نتائج وخيمة على البشرية .

الخاتمة:

وفي ضوء ما تقدم يمكننا أن نصل إلى النتائج التالية :

1. إنّ البيواتيقا علم أخلاقي تطبيقي حديث لا يتعارض مع التقدم العلمي ، بل يسعى إلى وضع حدود لا يمكن تجاوزها ، ويقدم توازنًا بين التقدم العلمي والقيم الأخلاقية ، وهابرماس لا يرفض هذا التقدم طالما يخدم مصلحة الإنسان ولا يمس بكرامته وحريته .

2. إنّ العقل الأداتي أدى إلى تشوه عملية التواصل ، وأوقع الإنسان المعاصر في الأزمات التي أدت إلى اغترابه ، وأنهت جانبه الأخلاقي .

3. على الرغم من تبني هابرماس لمشروع الحداثة ودفاعه عن العلم ،إلا أنه عارض تطبيق قيم ومبادئ هذه الحداثة في ميدان الهندسة الوراثية ، وميز بين نوعين من تحسين النسل الليبرالي أطلق عليهما تحسين النسل السلبي ، وتحسين النسل الإيجابي ، مما أدى إلى تحديد القيم الكبرى للبيواتيقا في الاستقلال الذاتي ، ومبدأ الحرية ، ومبدأ عدم الإضرار ، ومبدأ العدالة .

4. إنّ للعالم تحولاً عميقاً وانفتاحاً بيولوجياً كبيراً أدى إلى هيمنة الطابع التجاري على النقاشات الأخلاقية في مجالي الطب والهندسة الوراثية ، والذي تم استغلاله اقتصادياً في مسائل التبرع بالأعضاء ، والإنجاب ، والتخصيب وغيرها من المسائل التي أثارت نقاشات عن مدى مشروعيتها الأخلاقية والقانونية ، لذلك أصبحت البيواتيقا جزءًا لا يتجزأ من القوانين الدولية المعترف بها عالمياً .

5. أثارت أفكار هابرماس نقاشات أخلاقية وقانونية في مجال البيولوجيا، وذلك أدى إلى تبني منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة هذه النقاشات، وقامت بتشكيل الهيئات الاستشارية للمسائل الأخلاقية والقانونية اهتمت بوضع المعايير والمبادئ الأخلاقية وتنظيم المؤتمرات حول أخلاقيات البيولوجيا، إلى جانب البرامج.

6. إنّ الحرية المطلقة عند هابرماس تقوم على الذاتية للأفراد وهي تهدف إلى عدم تقييد حرية الإنسان في المستقبل ،وفي ذات الوقت عدم ترك العنان للرغبات الفوضوية التي تريد المتاجرة بإنسان المستقبل عن طريق التدخل بالسيرورة الوراثية ، والعمل على تعديلها ، مما يقود إلى عبودية الإنسان في المستقبل .

المصادر والمراجع:

1أبو فتاس ، عمر ، (2011) ، البيواتيقا، الأخلاق الجديدة في مواجهة البيوتيكنولوجيا، أفريقيا الشرق، المغرب.

2. أراس ، جون ، (2015) ، النظرية والبيواتيقا ، ت ، شيماء عطية وأحمد فاروق ، دفاتر فلسفية .

3. بركة، سامي،(2019)، الحاجة إلى فلسفة أخلاقيات المهنة، مجلة رواق الحكمة، العدد الخامس، دار رؤية للطباعة والإعلان، الزاوية. ليبيا.

4. البقصمي ، ناهد ، (1993)، الهندسة الوراثية والأخلاق ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد 74 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

5. بيندي ، جيروم وأخرون ، (2005) ، القيم الى أين ؟ مداولات القرن الحادي والعشرين ، ت ، زهيدة درويش ، جبور جان جبور ، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون ، قرطاج.

6. حديدي ، محمد ، (2002)، ما البيواتيقا ، منشورات الوطن ، الجزائر .

7. حديدي ، محمد ، (2016)، البيواثيقا ورهانات الفلسفة القادمة ، مجلة مؤمنون بلا حدود، مايو .

8. روس ، جاكلين ،(2001)، الفكر الأخلاقي المعاصر، عادل العوا، ط 1 ، عويدات للنشر والطباعة ، بيروت .

9. سوربة ، عمران وأخرون ،(2007) ، الاتيقا المتشضية في الفلسفة التطبيقية ، ط 1 ، دار جيكور للطباعة والنشر ، بيروت .

10. الشعلالي ، ناصر محمد ، (2017) ، نقد هابرماس للفلسفة الوضعية وأيدولوجياتها العلمية ، مجلة رواق الحكمة ، العدد الأول ، رؤية للطباعة والدعاية والإعلان ، ليبيا.

11. عطيه ، أحمد ، (2010) ، قراءة في الأخلاقيات الراهنة ، دار الثقافة العربية ، القاهرة .

12. فرنسوا ،جون ،(2009)، معجم العلوم الإنسانية، ت ، جورج كتوره ، ط 1 ، دار الكلمة، أبوظبي .

13. فكوياما ، فرنسيس ، (2006) ، مستقبلنا بعد البشري ، عواقب ثورة التقنية الحيوية ، ط1 ، ت ، إيهاب عبدالرحيم ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية .

14. المكانين ، مالك ، (2022) ، العلموية وأخلاقيات البيولوجيا ، مجلة تبين ، العدد 39 ، المجلد 10 ، المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسات ، الدوحة.

15. هابرماس ، يورغن ، (1995) ، الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي ، ت ، نظير جاهل ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، ألمانيا.

16. هابرماس ، يورغن ، (2002)، بعد ماركس ، ت ، محمد ميلاد ، ط 1 ، دار الجوار ، سوريا.

17. هابرماس ، يورغن ،(2006) ، مستقبل الطبيعة الإنسانية، نحو نسالة ليبرالية ، ط 1، ت ، جورج كتوره ، م انطوان ،المكتبة الشرقية، بيروت .